بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الثالثة

وقد أَوْلى الباحثون الغربيون اهتمامًا بالغًا بالقرآن الكريم نشأ في كثير من الأحيان من المخاوف التي استحوذت على عقليّة الإنسان الغربيّ ونظرته إلى الإسلام نظرة المنافس المهدِّد له باستلاب حضارته وثقافته، فظهر الجدل ضدّ القرآن الكريم مبكِّرًا، منذ القرون الوسطى في الغرب، في الخطاب الدينيّ اليهوديّ والمسيحيّ على لسان **يوحنا الدمشقيّ** (ت: 749م)، **وموسى بن ميمون** (ت: 1204م**)، وتوما الأكويني** (ت: 1274م)، ورئيس **دير كلوني بطرس** **المبجَّل** (ت: 1156م) الذي كان أوّل من شجّع على مشروع ترجمة القرآن الكريم إلى لغة غربيّة ودعمه، فظهرت أوّل ترجمة للقرآن إلى اللغة اللاتينيّة على يد **البريطاني روبرت كيتون** (Robert of Ketton) في الفترة الممتدة بين 1136-1157م، ثمّ تتابعت من بعدها الترجمات إلى اللغات الأوروبيّة المختلفة؛ كالإنكليزيّة، والفرنسيّة، والألمانيّة، والإيطاليّة، والهولنديّة، ... ولم يقتصر عمل المستشرقين على هذا المجال بالنسبة للقرآن الكريم، بل اتّسعت جهودهم إلى مجالات أخرى تتعلّق بالقرآن الكريم؛ كعلوم القرآن والتفسير والدراسات القرآنيّة، فبرزت في هذا الصدد شخصيّات استشراقيّة عدّة تنتمي إلى مدارس استشراقيّة أوروبيّة؛ ألمانيّة، وبريطانيّة، وفرنسيّة، ومجريّة...؛ من قبيل: الألمانيّ تيودور نولدكه (Theodor Noldke) (ت: 1930م)، ومواطنه رودي باريت (Rudi Paret) (ت: 1983م)، والمجريّ إجنتس جولدتسيهر (Ignaz Goldziher) (ت: 1921م)، والبريطانيّ ريتشارد بيل (Richard Bell) (ت: 1952م)، والفرنسيّ ريجيس بلاشير (Regis Blachere) (ت: 1973م)، والأستراليّ آرثر جفري (Arthur Jeffery) (ت: 1959م)، ... وقد وصلت هذه الجهود الاستشراقيّة في البحث القرآنيّ إلى مرحلة إصدار موسوعات قرآنيّة؛ كـ"موسوعة القرآن" التي صدرت ما بين 2000-2006م عن دار بريل الهولنديّة ضمن ستّ أجزاء.

وأدّت هذه الجهود الاستشراقيّة في مجال ترجمة القرآن الكريم والدراسات القرآنيّة في أغلب ما نتج عنها -عن تعمّد أو عن قلّة إطلاع وعلم ودراية- إلى الوقوع في أخطاء وشبهات خطيرة وجسيمة لا تليق بالقرآن الكريم؛ وهو منزّه عنها؛ ما استدعى ردودًا من قِبَل العلماء والباحثين المسلمين على مدار العقود المنصرمة. كما ساهمت بعض الدراسات الاستشراقيّة للقرآن الكريم في تعزيز جوانب من الدراسات التفسيريّة للقرآن وعلوم القرآن والدراسات القرآنيّة.

وقد اتّفقت كلمة المستشرقين؛ قديمًا وحديثًا، (**على نفي وحيانيّة القرآن الكريم)،** **ولكنْ تعدّدت آراؤهم** في المصادر التي استقاه منها النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، بين مَنْ يزعم أنّه :

1. **من تأثير بيئته الجاهليّة الوثنيّة**؛ للتشابه الحاصل بين بعض أشعار الجاهليّة وبعض آيات القرآن،
2. ومَن يدّعي أخذ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) له **من الحنفية السائدة قبل بعثته**؛ لتوافق تعاليم القرآن مع التعاليم التي كان يدين بها الحنفاء؛ **من الوحدانيّة، ورفض عبادة الأصنام، والوعد بالجنّة والنعيم، والوعيد بالنار والعذاب، والبعث والنشور**...،
3. ومَن يذهب إلى أخذه له من تعاليم **الصابئة؛ لتشابه ما ورد في القرآن من عقائد وعبادات ومناسك، مع ما كانت عليه عند الصابئة؛** من صلاة، وصوم، وحجّ وأعياد وتقديم قرابين، ...
4. **ومَن يُرجع تعاليم القرآن إلى الزرادشتيّة والهنديّة القديمة**،
5. **أو إلى تعاليم اليهوديّة والنصرانيّة،** لموافقة بعض تعاليم القرآن مع تعاليم الديانات السابقة، ولا سيّما على مستوى القصص والقضايا العقديّة والتشريعيّة والقيميّة... ومَنْ يستسيغ خلطة مزجيّة لجميع هذه المشارب أو بعضها؛ بتبريرات واهية ودوافع غير خافية!

وإلى جانب ذلك فقد كان للاستشراق اليهوديّ سابقًا والإسرائيليّ لاحقًا نصيب من هذه الافتراءات، ولا سيّما فيما يتعلّق بإرجاع تعاليم القرآن إلى تعاليم **المقرائيّة (العهد القديم)** وأدب التلمود، مدفوعًا بروح العنصريّة والشعور بالتفوّق والتميّز المُؤَدْلَج بوهم فكرة شعب الله المختار التي تخوّله النظر باستعلاء وازدراء إلى الآخر المختلف، وإرجاع ما يجده عند غيره من مظاهر الحضارة والرقيّ والجمال... إلى نفسه!

وسواء أكانت ما تنتجه الجهود الاستشراقيّة في ما يتعلّق بالقرآن الكريم مصيبًا للحقيقة أو مجافيًا لها، كان لا بدّ من رصد هذه الجهود بعين البصيرة؛ تمهيدًا لتصحيح ما فسد منها والحدّ من تداعياته الخطيرة على تقديم الإسلام والقرآن إلى الإنسان الغربيّ، والاستفادة ممّا صلح لتعميق البحث القرآنيّ ورفد الدعوة إلى الإسلام في العالم.

ونالت مسألة الوحي اهتمامًا كبيرًا من المستشرقين سواءً اليهود أو النصارى، وحاولوا بشتّى الوسائل الطعن في الإسلام من خلال هذا الأمر بمحاولة تفسير الوحي الذي نزل على سيدنا محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) بشتّى التفسيرات المادّيّة والعقلانيّة.

1. **فهل يعقل أن بعض كبارهم يصف الوحي بأنّه يشبه الصرع الذي يصيب الإنسان...**
2. **ومن الموضوعات التي خاض فيها المستشرقون فيما يخص القرآن الكريم ما أطلقوا عليه نقد النص القرآني.**
3. وهذا الأمر ناتج عما أحدثه الغربيّون بخصوص كتبهم المقدسة حيث أعملوا فيها نظريات نقد النص، وقد أدّى هذا النقد إلى التشكيك في طريقة نقل هذه الكتب وروايتها، وكذلك في الحقائق التي وردت فيها.

ومن المحاولات الاستشراقيّة الإسرائيليّة المعاصرة التي تدور في هذا الفلك: ما قام به المستشرق الإسرائيلي المعاصر أوري روبين (Uri Rubin) في هوامش ترجمته العبريّة للقرآن الكريم. تلك الترجمة التي صدرت طبعتها الأولى عن جامعة تل أبيب في عام 2005م، وأُعيد طباعتها في طبعة ثانية مزيدة ومنقَّحة عام 2016م، حيث تعرّض روبين لفرية استقاء القرآن من مصادر يهوديّة على الأعم الأغلب؛ بردّ قصص القرآن إلى قصص يهوديّة؛ كقصّة آدم وزوجه، وقصّة إبراهيم... وردّ عقائد القرآن وتشريعاته وألفاظه إلى مصادر يهوديّة؛ كالقضاء والقدر، وتحريم أكل الدم، واستعمال لفظ حطّة... مع إشارته إلى أخذ القرآن من النصرانيّة والوثنيّة على مستوى القصص والتشريع والألفاظ؛ كما في قصّة مريم والخضر، وكما في تشريع الزكاة واستعمال لفظ الجبت...

**أبرز الإشكالات التي يطرحها المستشرقون:**

1. **نظرية الوحي النفسي:** يرون أن الوحي هو فيض وجدان النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ناتج عن تفكيره بإنقاذ قومه من الشرك والظلم. يعتبرون أن النبي أدرك بوعيه الذاتي والروحي بطلان ما كان سائداً، فكانت الوحي نتاجاً لقوة عقله الذاتية.
2. **نسبة الوحي إلى الظواهر المرضية**: يصوّرون الوحي بأنه كان يصاحبه حالة من الصرع أو التشنج أو الهلوسة، وذلك للتقليل من مصداقيته. يربطون هذه الظواهر بما يصفونه بـ"التعرق" أو "الغشية" التي يظهر على النبي عند نزول الوحي.
3. **القرآن نتاج البيئة:** يزعمون أن النبي أخذ معظم معارف القرآن من بيئته العربية، ومن اليهود والمسيحيين وغيرهم من الأمم والشعوب، وليس من وحي إلهي. ويرون أن الأفكار والمفاهيم الموجودة في القرآن سبق وأن ظهرت في أماكن أخرى، وأنها نتاج لتأثيرات خارجية وليست وحياً من عند الله.
4. **الوحي تجربة شخصية للنبي:** يميل بعض المستشرقين إلى اعتبار الوحي تجربة شخصية للنبي، تشبه التجارب الروحانية والصوفية، ولا يمكن مقارنتها بالوحي الإلهي في مصادره وأهدافه. يرون أن هذه التجارب تخضع لتأثيرات نفسية واجتماعية وثقافية.
5. **إسقاط نظريات حديثة على الوحي:** يسقطون نظريات علم النفس والتحليل النفسي والفلسفي على الوحي، مثل نظرية الوعي الجمعي اللاواعي، لاعتبار أن القرآن هو نتاج عقله الجمعي. وهذا يؤدي إلى تجريد القرآن من قدسيته وتصنيفه كأي نص بشري آخر يخضع للنظريات الأدبية والفلسفية.
6. **التحيز والانتقائية في الدراسة:** غالباً ما يعتمد المستشرقون على المنهجية الانتقائية في دراساتهم حول الوحي القرآني، حيث يتجاهلون المنهجيات والمقاييس العلميّة المعتبرة، ويخضعون النصوص والوقائع لتفسيرات مسبقة تتناسب مع أفكارهم المتحيزة والمنحازة ضد الإسلام.
7. **تناقض منهجي:** يقبل البعض من المستشرقين وجود الأنبياء والرسل والوحي عبر التاريخ، إلا أنهم يرفضون الوحي على النبي محمد صلى الله عليه وسلم دون دليل علمي مقنع. ويتناقضون في هذا الرفض، بينما يقرون بالوحي في الرسالات السماوية السابقة، فكيف ينكرون الوحي على النبي محمد دون محاولة التأكد من صحته بشكل علمي؟

**محاولة التثبت من صحة مصدر التشريع الإسلامي.**

ومنها مـا يعود إلى محاولة عدد غير قليل منهم لتطبيق ما تعرض إليه الكتاب المقدس على القرآن الكريم ليكون ذلك مجالا للطعن بالإسلام وكتابه العظيم وسنعرض لأهم شبهاتهم حول مصدر الوحي، ونماذج من الروايات التي اعتمدها المستشرقون في إثبات شبهاتهم المدعاة.

**المطلب الأول**

**الوحي ومصدره في المنظور الإسلامي**

سوف نتناول في هذا المطلب بيان حقيقة الوحي ومفهومه في المنظور الإسلامي مشيرين إلى مصدره الحقيقي وهو المصدر الإلهي.

**أولاً: الوحي في لغة العرب :**

1. جاء في المعاجم العربية أن الجذر اللغوي المكون من (الواو والحاء والياء) أصل يدل على (**إلقاء علم في خفاء) ،** قال **ابن فارس:** «**الوحي: الإشارة. والوحي: الكتاب والرسالة، وكل ما ألقيته إلى غيرك حتى علمه فهو وحي كيف كان، وأوحى الله تعالى ووحى»** ([1])
2. **وقال الراغب الأصفهاني:** «أصل الوحي: الإشارة السريعة، ولتضمن السرعة قيل: أمر وحي، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التـركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة» ([2])
3. **وان الوحي أيضاً**: «الإعلام في خفاء» ([3])، فهو «الإشارة السريعة على سبيل الرمز والتعريض وما جرى مجرى الإيماء والتنبيه على الشيء من غير أن يفصح به» ([4]).
4. **وردت لفظة الوحي أكثر من سبعين موردا في القرآن الكريم منها ما كان بصيغة الاسم لقوله تعالى**: ) (سورة الشورى/ الآية51)، ومنها ما كان بصيغة الفعل لقوله تعالى: )(كذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ الله الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (سورة الشورى /آية)، وقوله U: )(وإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آَمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آَمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ( (سورة المائدة/الآية 111)، وكذلك قوله )(وأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرشُونَ)(سورة النحل/الآية68)، وكل هذه الموارد لا تخرج عن معنى الإلقاء.

**ثانياً: الوحي في المصطلح الإسلامي:**

قد وردت تعريفات للوحي في الاصطلاح الإسلامي هي:

**أ ـ** **تعريف الوحي بحسب الموحى به فهو:** كلمة الله التي يلقيها إلى أنبيائه ورسله بسماع كلام الله دون رؤيته، كتكليم النبي موسى بن عمران 7»، أو بواسطة ملك يشاهده الرّسول ويسمعه مثل تبليغ جبرائيل للنبي محمد ، أو بالرؤيا في المنام مثل رؤيا إبراهيم 7 في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل 7 ([5])، أو بأنواع أخرى لم ندركها.

**ب ـ** تعريف الوحي بحسب الإيحاء: ما أورده محمد عبدة: «إعلام الله لنبي من أنبيائه، فهو عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله تعالى بواسطة أو بدون واسطة »([6]).

**ثالثاً: حقيقة الوحي الإلهي:**

من التعريفات المتقدمة نلاحظ أن مصدر الوحي هو الله U، فالوحي هو الطريقة التي يوصل الله Uرسائله السماوية إلى البشر بواسطة أنبيائه، وقد أوحى الله Uإلى نبينا محمد 9 كما أوحى إلى النبيين من قبله لقوله تعالى:

)إنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآَتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا( (سورة النساء/آية163)، بعد أن عاش مع أهله في مكة المكرمة، وترعرع في كنف أبي طالب الذي تكفل نشأته و رعايته بعد وفاة والديه وجده وكان يعرف بالأخلاق والفضائل ولم ينغمس في شهوات قومه وأفعالهم، كما كان موضع احترام لدى قومه.

1. **لقد كان بدء الوحي في غار حراء،** فكان يخلو في غار حراء فتحنث فيه الليالي ذات العدد قبل أن يرجع إلى أهله حتى جاءه الحق (الملك) فقال اقرأ، قال ما أنا بقارئ؟ ثم قرأ سورة العلق ثم انقلب إلى أهله([7]).

فكانت هذه البداية الأولى للوحي ومن مميزاته:

1. **مصدر هذه الظاهرة الله تعالى لرعايته النبي محمد** (ص)، فكانت ظاهرة الوحي متناسقة إذ يوفق النبي من خلالها بين واجباته القيادية وحياته الاعتيادية فأمام المنافقين نجد الحذر واليقظة، كما نجد الوحي حاضرا في اللحظة الحاسمة فيسليه تارة ويعظمه تارة أخرى فيجعل مقامه متميزا ([8]).
2. **إنه «ظاهرة شعورية تتسم بالوعي والإدراك** التامين فضلاً عن أنها ظاهرة مرئية ومسموعة ولكنها خاصة بالنبي وحده فما اتفق ولو مرة واحدة أن سمع أصحابه صوت الوحي ولا حدث أن رأوا هذا الكائن الموحي ومع هذا فقد أدركوا صحة ما نزل عليه وصدق ما أوحي إليه بدلائل الإعجاز وقرائن الأحوال» ([9]) .
3. تلقى النبي محمد (ص) رسالته عن طريق الوحي لقوله تعالى: )إِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآَيَةٍ قَالُوا لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ( (سورة الأعراف/الآية 203).
4. **«الوحي ظاهرة روحيّة،** فإنّه بأيّ أقسامه اتفق فإنّما كان مهبطه قلب رسول الله (ص)، أي شخصيّته الباطنية ـ الروح ـ قال عزَّ مِنْ قال: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ الله مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة البقرة/الآية 97)، وقالU: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ \* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْـمُنذِرِينَ﴾ )سورة الشعراء/الآية193-194)، والقلب هو «لبّ الشيء وحقيقته الأصلية»([10]).
5. **فالوحي القرآني ببساطة الكلام المنزل** على الرسول محمد (ص) من الله تعالى بواسطة الملك جبرائيل (ع) وبدون مصاحبة أي أعراض مما تناقلها العامة في كتبهم، فهذه الروايات والكتابات ولدت صورة غير لائقة بقداسة هذا الأمر العظيم، فقد وصفوا النبي حال الوحي بأوصاف توحي بأنه مصاب بمرض أو حتى الجنون أو أنه لم يعرف علامات النبوة إلا بعد استشارة السيدة خديجة ابن عمها !([11])

**رابعاً: صور الوحي الإلهي:**

أشرنا فيما سبق أن الوحي هو الطريقة والواسطة بين الله تعالى وبين من اختصهم بتبليغ رسالته بيد أن هذه الواسطة كانت على صور عدة وهو ما أوضحته الآية الكريمة من سورة الشورى) **(ومَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ الله إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ)** ((سورة الشورى/ آية51)، فمن صوره:

**أ ـ الإيحاء: ويعني:** «إلقاء المعنى في قلب النبي أو نفثه في روعه بصورة يحس بأنه تلقاه من الله تعالى» ([12]).

**وهنا يطرح السؤال: من أين للنبي أن يعرف بأن الصوت أو النفث هو من عند الله تعالى؟**

**يمكن الإجابة على ذلك:** بأنه «يحصل للأنبياء في تلك الحالة نوع من المكاشفة الباطنية والإحساس الداخلي تبلغهم وتوصلهم إلى القطع واليقين الكامل وتزيل عنهم كل أنواع الشك والشبهة ومن الممكن أن تكون بداية الوحي مقترنة بأمور خارقة للعادة»([13]).

**ب ـ تكليم النبي من وراء حجاب** كما كلم الله تعالى موسى (ع) من وراء الشجرة ([14])، وهذا التكليم يسمعه النبي ويدركه مع اليقين التام بأنه كلام الله وليس كلام أحد سواه، لقوله تعالى**:) (وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ الله مُوسَى تَكْلِيمًا) ( (سورة النساء/آية164).**

**وقد اختلف في الحجاب على ثلاثة: أقوال ذكرها ابن إدريس:**

1. «أحدها: حجاب عن إدراك الكلام لا المكلم وحده
2. والثاني: حجاب لموضع الكلام،
3. الثالث: أنه بمنزلة ما يسمع من وراء حجاب» ([15]).

وأنّ الوحي الذي عناه الله تعالى في هذه الآية ما سمعه الرسول بغير واسطة، والمسموع من وراء الحجاب هو الكلام الذي تؤدّيه الوسائط إلى الرسل والبشر من غيرهم، وليس الحجاب المعني في هذه الآية هو الشيء الذي يستر المتكلَّم عمّن كلَّمه ويحول بينه وبين مشاهدته، لكنّه ما وصفناه من الرسل، وإن الوسائط بين الخلق وبين الله U، فشبّههم بالحجاب الذي يكون بين الإنسان وبين غيره عند الكلام فيسمعه من ورائه ولا يرى المتكلم من أجله ([16]) .

بقي أن نعرف ما كيفية الكلام المنسوب لله تعالى هل الحروف والكلمات المتعارف عليها؟ فبين الشريف المرتضى تحت عنوان (كلام الله تعالى كيف يكون) قوله: «كلام الله تعالى هل يكلم به أو أحدثه مثل غيره من المحدثات، وكلامه لموسى (ع) من الشجرة كيف كان وقد قال تعالى: ) (وَمَا كَانَ أَنْ يُكَلّمَهُ اللهُ إلّا وَحْياً)(، (الجواب) وبالله التوفيق: إنه إذا أحدثه فقد تكلم به، لأن المتكلم هو فاعل الكلام، فإذا فعل الكلام فقد تكلم به وقد أحدثه، والمعنى فيهما واحد، وأما كلام موسى (ع) من الشجرة، فالله تعالى كلمه، ولذلك قال تعالى: )وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ الله مُوسَى تَكْلِيمًا( (سورة النساء/الآية 164)»([17])، ومن هنا فان الله (ع) خلق هذا الكلام في الشجرة التي كلمت موسى (ع).

**ت ـ ما يكون بواسطة الوحي جبرائيل** (ع) وهذا أغلب أنواع الوحي لرسولنا محمد (ص)، ولغيره من الرسل والقران كله من هذا القبيل ([18]).

وقد أشارت الآيات القرآنية الكريمة إلى الرسول أو واسطة الوحي القرآني لقوله تعالى ) (إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ)( (سورة الشعراء/آية192-193).

وقد اشتمل الوحي المحمدي على هذه الصور الثلاث فضلا عن الرؤيا الصادقة ([19])، وقد أضيفت إليها صورة صلصلة الجرس جملة من المفسرين مستدلين بمجموعة من الروايات الموجودة في كتبهم التي تلحق بالنبي حالة الهوس عندما ينزل عليه الوحي ([20]) .

المطلب الثاني

**مصادر الوحي عند المستشرقين:**

كثرت شبهات المستشرقين حول مصدر الوحي والقرآن فكانت كلماتهم لا تخرج عن كون القرآن من صنع النبي محمد، فعلى سبيل المثال لا الحصر:

- قول ماكدونالد ([21]): «القرآن ليس من عند الله »([22]).

- وقال ويلز ([23]): «محمد هو الذي صنع القرآن »([24]) .

- ويذكر لوبون ([25]): «القرآن من عند محمد ومن تأليفه »([26])، فهم يوردون عدة مصادر محتملة لأخذ النص القرآني عنها والانطلاق من ذلك لإنكار المصدر الإلهي، وهي:

**أولا: اليهودية والنصرانية:**

 لقد ادعى المستشرقون أن مصدر الوحي هو الديانة اليهودية والنصرانية عن طريق الكتابات التي اطلع عليها النبي محمد في أثناء أسفاره واتصاله ببعض النصارى واليهود الذين قطنوا جزيرة العرب.

فقد حاول بعض المستشرقين دراسة حال اليهود والنصارى خارج الجزيرة العربية ثم دراسة أحوالهم داخلها بغية التوصل إلى أن القرآن الكريم قد نقله الرسول محمد من الأوساط اليهودية والنصرانية، وممن ذهب إلى هذا القول من المستشرقين:

1. جرجس سال الإنكليزي ([27]) الذي قال: «اجتمع في جزيرة العرب عدد وافر من الفرق المختلفة الأسماء لجأوا إليها هربا من اضطهاد القياصرة فأدخل محمد كثيرا من عقائدهم في دينه، أما اليهود الذين كانوا أذلاء لا يعتد بهم فقد قويت شوكتهم في بلاد العرب حيث لجأ كثير منهم على أثر خراب بيت المقدس وهودوا كثيرا من ملوك العرب، و لذا كان محمد في بادئ أمره يداريهم حتى أنه أخذ عنهم كثيرا من مقالاتهم ورسومهم تألفا لهم لعلهم يشايعونه» ([28]). يشير سال بقوله هذا إلى:

1. أن مجتمع الجزيرة العربية تكوّن من فرق مختلفة انتقلت إلى جزيرة العرب بعد أن تعرضوا للاضطهاد من ملوك الروم.

ولكي يوسع محمد دينه كسب ثقتهم ضمَّن الإسلام بعضا من عقائدهم وطقوسهم الدينية.

2. - إن اهتمام النبي محمد (ص) باليهود الذين كان لهم الحظ الأكبر من هذا الاهتمام كان بسبب نفوذ اليهودية إلى مناصب عليا في ذلك الوقت، وهو أمر أدّى إلى أخذ النبي محمد (ص) كثيرا من تعاليمهم.

جواب الشبهة:

 فقد بالغ المستشرق كثيرا لأن اليهود بطبيعتهم فئة مستغلقة لا يسمحون لأحد باعتناق دينهم ويتعدى هذا الانغلاق إلى المسائل الاجتماعية، فكيف للنبي أن يطلع على دينهم، كما أن الحقائق التاريخية تشير إلى الموقف الحاد لليهود ضد الرسول (ص)، قال الله تعالى:

)وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى الله هُوَ الْـهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ الله مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ( (سورة البقرة /الآية 120).

وإن تكوّن مجتمع الجزيرة العربية من أديان مختلفة لا يمانع من حلول دين جديد يصحح المفاهيم، فضلا عن أن تضمّن الإسلام بعض العادات والممارسات الدينية المشابهة للأديان الأخرى دليل على أن مصدرهما واحد وهو المصدر الإلـهي .

3. ولم يختلف المستشرق ويليم موير([29]) عن رأي سابقه في عرض الشبهة بقوله: «إن المسيحية منتشرة على نطاق واسع بين القبائل السورية والحدودية وحتى أنه كانت بعض المستوطنات المسيحية في قلب الجزيرة العربية، ولهذا لم يكن الإنجيل مفقوداً في مكة»([30])، فيصرح بأن المسيحية كانت سائدة في مجتمع الجزيرة العربية ولا يستبعد أن الإنجيل قد توافر في أوساطها ولاسيما مكة مما ساعد محمداً أن يستقي من أفكارها.

ومن هنا فقد حاول بعض المستشرقين أن يتخذوا من انتشار المسيحيّين واليهود بشبه الجزيرة العربية ذريعة للطعن بمصدر الوحي ([31])، كما فسر آخرون بعض النصوص الواردة في كتب العهدين القديم والجديد، إن النبوءات المنسوبة لموسى وعيسى (ع) قد شعت من فاران وكانت تحت عنوان (النور المشع القادم من فاران)([32]) بأن محمداً (ص) قد استفاد من الكتب السابقة وتوظيفها لنبوته الجديدة.

وهكذا نلاحظ أن آراء المستشرقين الجدد لم تكن مخالفة لآراء أسلافهم بل مجانبة لها، فأقوال كل من سال وتسدال وويليم ما هي إلا مخلفات آراء كل من بروكلمان ونولدكه وغيرهم، فهذا بروكلمان يعزو مصدر القرآن والوحي إلى الديانتين اليهودية والنصرانية بقوله: «لم يكن عالمه الفكري من إبداعه الخاص إلا جزءاً صغيراً فقد انبثق في الدرجة الأولى عن اليهودية والنصرانية» ([33]).

فيشير بروكلمان إلى مسألة هي أن مصدر الوحي ناتج عن الأفكار التي كونها النبي محمد (ص) زيادة على ما استفاده في اليهودية والنصرانية، والتي كانت لهما الأهمية الكبرى في ولادة دينه الجديد، ونولدكه ([34]) الذي استعرض الشبهة أيضا، قائلاً: بـأن «المصدر الرئيس للوحي الذي نزل على النبي حرفيا بحسب إيمان المسلمين وبحسب اعتقاد القرون الوسطى وبعض المعاصرين هو بدون شك ما تحمله الكتابات اليهودية، وتعاليم محمد في جلها تنطوي في أقدم السور على ما يشير بلا لبس إلى مصدرها، لهذا لا لزوم للتحليل لنكشف إن أكثر قصص الأنبياء في القرآن، لا بل الكثير من التعاليم والفروض، هي ذات أصل يهودي»([35]).

فنلاحظ أن المستشرق نولدكه يقطع بأن المصدر الأساسي والمكوِّن للوحي القرآني هو الكتابات اليهودية ودليله على ذلك قصص الأنبياء المذكورة في القرآن الكريم، وبعض التعاليم والفروض، فيورد أمثلة عديدة ليثبت افتراءاته، ويقول: إن الشهادة المعروفة في الإسلام: لا اله إلا الله، مستقاة من عبارة يهودية يشير إليها في كتاب صموئيل الثاني فضلا عن أنه يدعي بأن الوحي كان نتيجة اختلاط العرب آنذاك مع اليهود والمسيح ،حتى إن بعض أشكال الصلاة ووصف الوحي بالفرقان هو ما يمكن اشتقاقه من اللغة الآرامية المسيحية، فرقان بمعنى خلاص([36]).

جواب الشبهة:

إن الفرائض والعبادات ومنها الصلاة والصوم مطلب شرعي في كل الديانات السماوية وان فرض الصلاة في الديانات السماوية السابقة وعند المسلمين أمر طبيعي، «فإن الاتفاق بين ديانتين في بعض الأحكام لا يعني سطو المتأخر على المتقدم والاختلاف إن وجد لا يعني نفي المتأخر للمتقدم، فكل منهما رسالة من الله تضمنت الأوامر والنواهي والفروض والتعاليم بما يلائم تطور الإنسان»([37])، زيادة على أن وصف الوحي وتسميته بالفرقان لا يعني أن مصدره مسيحي أو يهودي فقد جاء في قوله تعالى: )(تبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا)( (سورة الفرقان /الآية1)، وغيرها من النصوص القرآنية الكريمة ذات الدلالة على استعمال العرب لهذا اللفظ قبل الإسلام نتيجة «أن لهجات الآرامية كانت تسود بلاد فلسطين وسورية وبعض مناطق العراق وإن جوار العرب لليهود عجل لانتشار كثير من الألفاظ الآرامية بين العرب، وإن تداول العرب لها قبل الإسلام كان كافيا لتعريبه واستعمال الإسلام لها في تسمية كتابه العزيز»([38]).

4. ويذكر المستشرق بلر بعض الأمثلة التي تدل على الأخذ من المصادر اليهودية والمسيحية فبالنسبة إلى مـا يتعلق بمصادر بعض الأفكار والتعبيرات الخاصة بيوم الحساب والبعث الواردة في القران الكريم والتقاليد الإسلامية فإنها قد اقتبست وبشكل واضح من الكتب اليهودية والمسيحية فإن لفظ «الساعة» و«اليوم» هي من العهد الجديد ([39]).

إن وجود هذه الألفاظ وما يماثلها في القرآن الكريم هو دليل على أن القرآن كان مكملا رسالة الشرائع السابقة له وخاتما لها .

ولم يكتف المستشرقون بهذا القدر وإنما أوكلوه إلى معلمين قد تكفلوا هذا الأمر، وقدموا لذلك أدلة تدعي أن النبي محمداً (ص) تعلم على يد معلمين التقى بهم في أسفاره التجارية وكان منهم: بحيرا الراهب ([40])، ورقة بن نوفل ([41])، وسنتناول هذه الشبهة بالتفصيل.

أ ـ أما ما يتعلق بالمعلم الأول للرسول محمد 9 فينقل المستشرق الروسي أليكس([42]) قصة خرافية كانت قد انتشرت في المسيحية الشرق أوسطية مؤداها، «إن محمدا كان في البداية تلميذا للراهب النسطوري سرجيوس بحيرا، زاعمين أنه تلقى منه بعض المعلومات الأساسية من التوراة والإنجيل»([43]) .

فقد ادعى أن بحيرا هو المعلم الأول للنبي محمد (ص)، كما ادعى شاكلته ذلك، فيقولون إن المعارف التي في القرآن ما هي إلا نتائج هذا التعليم،

جواب الشبهة:

غير أن«التاريخ لا يعرف أكثر من أنه سافر إلى الشام في تجارة مرتين، مرة في طفولته ومرة في شبابه، ولم يسافر غير هاتين المرتين، ولم يجاوز سوق بصرى فيهما، ولم يسمع من بحيرا ولا من غيره شيئا من الدين ولم يك أمره سرا هناك»([44])، فهل من المعقول أن رسالة عالمية قامت على لقاءين من معلم؟!

إن هذه الشبهة مردودة فلو كان بحيرا معلماً عظيماً وبارعاً لدرجة أنه خطط لتأسيس رسالة النبي محمد (ص)، فمن المقابل أن يكون له ذكر عن حياته وسيرته، وكان أحق للدعوة أن تظهر من مدينة بصرى دون مكة، فضلاً عن أنه لو كان النبي (ص) قد تعلَّم عند الراهب في بصرى، لكان هذا الأمر شائعاً بين أوساط قريش في مكّة بعد العودة من رحلته، غير أن المشركين عجزوا عن توجيه التهم للرسول محمد (ص) ولو كان ذلك حاصلا لذكر المشركون هذه التهمة قبل حوالي أكثر من أربعة عشر قرنا، فلم يكن النبي محمد يلتقي قبل إعلان نبوته فلانا من العلماء يستمع من حديثه عن علوم الدين ومن قصصه عن الأولين والآخرين وحتى الذين لقوه بعد النبوة فقد سمع منهم وسمعوا منه ولكنهم كانوا سائلين وعنه آخذين وكان لهم معلما وواعظا ومنذرا ومبشرا([45]) .

ويستنكر كارليل([46]) ما زعمه المستشرقون حول هذه الشبهة، ويقول: «إني لست أدري ماذا أقول عن ذلك الراهب سرجياس (بحيرا) الذي يزعم أن أبا طالب ومحمدا سكنا معه في دار، ولا ماذا عساه يتعلمه غلام في هذه السن الصغيرة من أي راهب ما »([47]) .

ب ـ الأخذ عن ورقة بن نوفل :

أما ما يتعلق بأخذ النبي محمد (ص) من المعلم الثاني نستعرض ما أشار إليه مونتجمري وات ([48]) في هذا الصدد، فذكر أن النبي محمدا (ص) التقى بورقة بن نوفل وأخذ عنه أصول دينه، فيقول: «كانت خديجة ابنة عم رجل يدعى ورقة بن نوفل بن أسد وهو رجل متدين اعتنق أخيرا المسيحية، ولا شك أن خديجة قد وقعت تحت تأثيره ويمكن أن يكون محمد قد أخذ شيئا من حماسه وآرائه» ([49]) .

اصل الشبهة: نلاحظ أن مونتجمري وات يؤكد أن النبي (ص) قد وقع تحت تأثير النصرانية وبالوقت الذي سبقته خديجة إلى ذلك، كما يشير إلى العلاقة الوثيقة التي جعلته يتأثر بأفكار ورقة حتى بدت في تعاليم محمد (ص) فيما بعد بقوله: «من الأفضل الافتراض أن محمدا كان قد عقد صلات مستمرة مع ورقة منذ وقت مبكر وتعلم أشياء كثيرة، وقد تأثرت التعاليم الإسلامية اللاحقة كثيرا بأفكار ورقة»([50])، ويبدو أن المستشرق قد اعتمد على الشبهة التي ادعاها بعض المبشرين وهي أن الوحي القرآني بدعة نصرانية وقد سعى إلى إثارتها المستشرقون فكان مفاد دعوتهم أن القرآن الكريم مستل من أصول نصرانية وأن النبي محمد (ص) تعلم على يد رئيس النصارى بحسب تعبيرهم وهو ورقة بن نوفل، فقد ذكر يوسف الحداد مستشهدا بالروايات الإسلامية ([51]) قائلاً: «الشهادات الإسلامية متضافرة في النتيجة الحاسمة، أن ورقة بن نوفل (رئيس النصارى) بمكة كان يكتب ويترجم إنجيل النصارى لجماعته، فالنصارى موجودون بمكة مع مطرانهم وإنجيلهم ومحمد مدة خمس عشرة سنة ما بين زواجه من خديجة ومبعثه كان بجوار ورقة يحضر كتابه الإنجيل وترجمته إلى العربية»([52]). فهو يفترض عدداً من المطالب منها:

- ورقة بن نوفل كان من النصارى بل ورئيسهم .

- التأكيد على وجود النصارى في مكة المكرمة .

- العلاقة الوثيقة بين ورقة والنبي محمد (ص) والتي كان من نتائجها ترجمة الإنجيل إلى النبي محمد (ص)، وعن طريق مطالعة الكتاب نلاحظ أن المؤلف اهتم بتأصيل هذه المطالب إذ عقد فصلا مستقلا للحديث عن ورقة بن نوفل وأثره في محمد والقرآن وضح من خلاله المطابقة القائمة بين النصرانية والدعوة القرآنية ثم يستعين ببعض الآيات القرآنية الدالة على رعاية القس ورقة للنبي محمد (ص) ([53]).

ويناقش بعض النصارى أيضا مسألة الحروف المقطعة في فواتح السور على أنها رموز مختصرة لجمل سريانية اختزلت بطريقة منسقة زعما منهم أن ورقة بن نوفل قد ترجمها للنبي محمد (ص)، فقد أشار الأب سهيل قاشا إلى ذلك بعد أن أرجع هذه الحروف إلى أصولها السريانية كما يدعي مستخلصا: «هذه الفواتح السريانية تؤيد بل تؤكد أن ورقة بن نوفل كان يترجم الكتاب"الإنجيل" من اللسان العبراني إلى العربي الذي بدوره دخل إلى القرآن، فأبقى محمد على تلك الحروف التي كان ورقة وغيره يفتتح بها سوره الجديدة، أو الإصحاحات المترجمة والتي على الأغلب كان ورقة يتركها كافتتاحيات للأسفار من العهد القديم أو الإنجيل»([54]) .

ويبدو أنه ليس هناك دليل تاريخي على تنصر ورقة بن نوفل حتى لو قيل إنّ الروايات الواردة في شأن اللقاء الذي حصل بين النبي محمد (ص) وورقة عندما أوحي إليه بالنبوة ـ إن صحت ـ قد دلت على ذلك ،نعم هي تدل على اللقاء وليس التعليم حتى أن حديث ورقة للنبي (ص) بذكره الناموس فلا دلالة له على أن ورقة كان نصرانياً.

فضلاً عن أن ورقة خصص الناموس الذي نزل على النبي موسى (ع) دون النبي عيسى (ع) دلالة على أن ورقة ليس معتنقا النصرانية كما ادعى وات وأمثاله، كما أن ورقة قد توفي في بداية الدعوة الإسلامية([55])، إذ لم يشهد كل الوحي المحمدي، ولو كانت هذه التعاليم من عند ورقة كان ورقة أحق بأن يقوم بهذه المهمة بدلا من الرسول محمد (ص).

ومن هنا فإن المستشرقين أثاروا شبهاتهم حول مصدر الوحي ونسبوه إلى ما كان متوافرا في جزيرة العرب من معتنقي اليهودية والنصرانية الذين قطنوا جزيرة العرب، وهي مردودة لأن مكة قد ارتادها كثير من القوافل لغرض التجارة وكانت حلقة الربط بين الشام واليمن، وكان من الطبيعي استقطاب عدد غير قليل من التجار من مختلف الديانات لغرض التكسب، ولكن لم يخبرنا التاريخ أن مجتمع الجزيرة قد تأثر بدين هؤلاء.

ثانياً: مصدر الوحي: الاضطرابات النفسية (نظرية الوحي النفسي):

بنى المستشرقون أكثر شبهاتهم حول القرآن الكريم وتاريخه على نظرية الوحي النفسي ومفاد هذه النظرية هو أن الوحي القرآني فيض وجدان النبي محمد (ص) الناتج عن تفكيره بخلاص قومه من الشرك والظلم، وأشار السيد محمد باقر الحكيم إلى معنى النظرية: «أن محمداً قد أدرك بقوة عقله الذاتية وما يتمتع به من نقاء وصفاء روحي ونفسي بطلان ما كان عليه قومه من عبادة الأصنام، كما أدرك ذلك أيضا أفراد آخرون من قومه»([56]) ،و ممن تمسك بهذه النظرية المستشرق مونتجمري وات عندما ناقشها في كتابه الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر بقوله: «إن السؤال الذي يصوغ نفسه هو :كيف وصلت هذه الكلمات التي كونت التجربة الأولى إلى وعي محمد أو شعوره؟»([57]) .

فإن مونتجمري يحاول أن يثير الشبهة بوضع التساؤلات والاستفهامات حول الكيفية التي توصل بواسطتها النبي محمد (ص). وتبنى هذه النظرية أيضاً المستشرق بروكلمان، إذ قال: «تحققت عنده أن عقيدة مواطنيه الوثنيين فارغة فكان يعتمل في أعماقه هذا السؤال: إلى متى يمدهم الله في ظلالهم ما دام هو U قد تجلى آخر الأمم للشعوب الأخرى بواسطة أنبيائه ؟ وهكذا نضجت في نفسه الفكرة أنه مدعو إلى أداء رسالة النبوة»([58]).

نلاحظ أنها محاولة من المستشرق لإضفاء صفة الذكاء على النبي (ص) لتخليص قومه من العادات والممارسات الخاطئة، فتولد نتيجة قوة إدراكه و أفكاره المثالية فكرة إدعاء النبوة التي باتت واضحة في نفسه، ويريد من قوله هذا التوصل إلى أن الوحي ما هو إلا نتيجة الأفكار والتأملات المتراكمة في عزلة النبي في غار حراء لخلاص قومه، وهذه الشبهة مردودة فقد استملتها عصبيتهم وكرههم للإسلام والنبي محمد (ص)، فهذا فرتجوف([59]) يستنكر ما ادعاه أقرانه، فقال في معرض حديثه عن صدق الدعوة المحمدية وذلك بمقارنتها مع ما ورد في الكتب السابقة:

«إن كان محمدٌ نبيا كاذبا فإننا لا نرى سببا لماذا لم يتكلم عنه المسيح كما تكلم عن ضد المسيح (الدجال) أما إذا كان نبيا صادقا فينبغي أن يكون هو المقصود في المقاطع الإنجيلية المتعلقة بالفارقليط([60])... لو كان محمد من الأنبياء الكذبة الذي حذر منهم المسيح لما أعقبه كثيرون مثله وربما وجدنا في أيامنا عددا كبيرا من الأديان الزائفة لكن الحياة الروحية في الوسط الإسلامي منذ بدايته حتى أيامنا هذه حقيقة يتعذر أن ينكرها أحد»([61]) .

ثالثاً: مصدر الوحي: الحنيفية :

تحير المستشرقون في إثارة الشبهات حول مصادر الوحي حتى ادعى بعضهم أن الحنيفية هي إحدى مصادر النبي محمد (ص) في تأليف القرآن الكريم، فقال برنارد لويس([62]) :«تشير الأخبار إلى قوم يسمون بالحنفاء ،وهم قليلون وثنيون لم يقنعوا بعبادة الأصنام السائدة بين قومهم، وبحثوا عن صورة من الدين أطهر، ولكنهم كانوا غير راغبين في اعتناق اليهودية والنصرانية، وقد يكون من الصحيح أن يبحث بينهم عن أصول محمد الروحية»([63]) . فهو يشير إلى عدة أمور:

- عد الحنفاء من الوثنيين .

- إن الحنفاء لم يقنعوا بعبادة الأصنام وأخذوا يبحثون عن دين جديد .

- مع البحث المستمر عن دين يلائم قناعتهم، فلم يروا في اليهودية والمسيحية ما يحقق ذلك .

- إن النبي قد تأثر بالحنفاء إذ إنّه من الممكن أن نجد بعضاً من أصول الإسلام بين هؤلاء الحنفاء.

إن عد الحنفاء من الوثنيين هو أمر غير منطقي؛ ذلك لأنهم مجموعة من الموحدين الذين بقوا على دين إبراهيم (ع)، «ففي مكة كانت الحنيفية محدودة العناصر، في أفراد يشار إليهم بعدد الأصابع»([64]).

وممن أورد ذلك المستشرق كلير تسدال بقوله: «لما رأى محمد أن عبادة الأصنام ليست مناسبة بل مكروهة أمام الله الواحد ،ولما كان قد عزم على إرجاع قومه إلى دين إبراهيم الخليل فالأرجح أنه وجه أنظاره إلى اليهود للاستفادة منهم، فاستفهم منهم عن عقائد دين إبراهيم»([65])، ظاهر قوله عدة نقاط منها:

- إنّ النبي محمداً (ص) فكر أن يغير حال قومه إلى أفضل حال من خلال القضاء على المظاهر السيئة لدى قومه ومنها عبادة الأصنام .

- انتخب النبي محمد (ص) دين إبراهيم الخليل من بين الأديان الأخرى التي كانت تعج جزيرة العرب ـ رأى النبي محمد (ص) أن اليهود هم أولى بالتعرف من خلاله عن دين إبراهيم الخليل.

إن وجود هذه الفئة في الجزيرة العربية لا يدل على أن النبي محمداً (ص) نهل دينه منهم ؛ لأن وجودهم أمر طبيعي إذ إنّهم من بقايا دين إبراهيم الحنيف، ثم يؤكد تسدال على «أن آراء زيد بن عمرو أثرت تأثيرا مهما في تعاليم محمد ،لأن كل آراء زيد نجدها في ديانة محمد أيضاً»([66])، فهو يعزو رسالة الإسلام إلى أخذ النبي (ص) عن زيد بن عمرو الذي كان له أثر فاعل في تأسيس أصولها ودليله التشابه بين آراء زيد و الديانة المحمدية.

إن التشابه بين الديانة الإبراهيمية والديانة المحمدية أمر مفروض لأن رسالة النبي محمد (ص) ما هي إلا امتداد للرسائل السابقة ومنها الإبراهيمية الحنيفية وخاتمة للشرائع الأخرى، ولكن المستشرق لم يعط مثالا لهذا التشابه سوى ما أسند كلامه بالاعتماد على الروايات الواردة في كتب السير ككتاب السيرة لابن هشام التي ذكرت أن النبي محمد (ص) قد اجتمع بزيد بن عمرو فيقول: «أفادنا ابن هشام أن محمدا كان معتادا أن يقيم في غار جبل حراء في صيف كل سنة للتحنث حسب عادة العرب فالأرجح أنه كان يجتمع بزيد بن عمرو([67]) لأنه أحد أقربائه وأقوال ابن إسحاق تؤيد ذلك»([68])، ثم أشار قائلاً: «في أثناء فترات انعزال محمد في جبل حراء للتأمل كما كان ديدنه كل عام ،كان كثيرا ما يلتقي زيدا المسن ومن خلال الاتصال معه......وبالفعل لا يمكننا التقليل من تأثير الحنيفية على محمد خلال زمن نشأة الإسلام»([69]).

فيؤكد تسدال أن زيدا كان يلتقي النبي محمدا (ص) في أوقات التحنث في غار حراء وجمع كل الأفكار التي تتعلق بالدين الجديد من خلال لقاءاته هذه، وأنّ هذه الشبهة تفترض أن يكون النبي محمداً (ص) قد استقى دينه وهيّأ له بشكل كامل وبوقت وجيز يعادل لقاءاته بزيد، ولكن الوقائع التاريخية وما نقل من أخبار عن النزول التدريجي للقرآن الكريم والمراحل التي مرت بها الدعوة الإسلامية تأبى قبولها، وكان أجدر بالنبي محمد (ص) إبلاغ دعوته كاملة في مدة قصيرة لا مدة قاربت الثلاث وعشرين سنة متحملا أذى قومه.

ويقول المستشرق آتيين دينية([70]) تحت عنوان "محمد لم يؤلف القرآن" رادا هذه المزاعم: «حقا ليدهشني أن يرى بعض المستشرقين :أن محمدا قد انتهز فرصة الخلوة فروى ورتب عمله في المستقبل، بل ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فوسوس بأن محمدا ألف في تلك الفترة القرآن كله ،أحقا لم يلاحظوا أن هذا الكتاب الإلهي خال من أي خطة سابقة على وجوده مرسومة على نسق المناهج الإنسانية، وإن كل سورة من سوره منفصلة عن غيرها وخاصة بحادثة وقعت بعد الرسالة طيلة فترة تزيد على عشرين عاما وأنه كان من المستحيل على محمد أن يتوقع ذلك ويتنبأ به ؟ ولكنهم في جهلهم بالعقلية العربية لم يجدوا غير ذلك تعليلا لهذا التحنث الطويل»([71])

ومن هنا فإن المستشرقين تتبعوا الروايات الإسلامية واستغلوا الهفوات في ترويج شبهاتهم.

رابعاً: مصدر الوحي: الشيطان:

لقد ذكر المستشرقون شبهة أخرى حول الوحي القرآني إذ زعم بعض المتقولين أن النبي (ص) كان متصلاً بالجن، وأن الوحي القرآني ما هو إلا وحي من الشيطان كان يأتيه وإن جبريل ما هو إلا شيطان كان يتمثل له على صورة الملك ويستدلون على ذلك من عزلة النبي (ص) في غار حراء قبل البعثة، وهدفهم جعل الوحي شيطانيا محضا، بدلا من كونه وحياً سماوياً إلهياً، نزل به الروح الأمين على قلب النبي محمد (ص) ليكون من المنذرين .

فقد ذهب تسدال([72])، ونولدكه([73]) أن الوحي القرآني وحي شيطاني ناتج عن إملاء الشيطان للرسول محمد (ص) ذاكرين الآية الكريمة من سورة الحج: )ومَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ الله مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ الله آَيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ( (الآية 52) دليلاً على شبهتهم.

شكلت خرافة الغرانيق العمود الفقري لهذه الشبهة، وهي تستند أساساً على خرافة أن النبي محمدا كان يقرأ سورة النجم، فألقى الشيطان على لسانه آيات يمدح بها آلهة المشركين فوصفها بأنها ذات شفاعة: فقال: «تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهم لترتجى» فسجد الرسول وسجد المشركون، فقد وجدت هذه الخرافة صداها الواسع في كتب المسلمين([74]) وهو ما أدى إلى استناد المستشرقين إليها.

إن المستشرقين اعتمدوا الروايات الضعيفة في إيراد هذه الشبهة ولكن المتتبع لتفسير الآية القرآنية يجد أنها تخالف ما ذهبت إليه هذه الروايات، فقد أورد الشيخ الطوسي آراء العلماء في تفسير الآية الكريمة لكنها لا تخرج إلى هذه الفرية الكبرى على نبينا محمد (ص) ([75]):

- قول ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك ومحمد بن كعب ومحمد ابن قيس: كان سبب نزول الآية انه لما تلا النبي (ص) )أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى \* وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرى (ألقى الشيطان في تلاوته «تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجي».

ومعنى الآية التسلية للنبي (ص) وأنه لم يبعث الله نبيا، ولا رسولا إلا إذا تمنى ـ يعني تلا ـ ألقى الشيطان في تلاوته بما يحاول تعطيله، فيرفع الله ما ألقاه بمحكم آياته.

- قول مجاهد: كان النبي (ص) إذا تأخر عنه الوحي تمنى أن ينزل عليه فيلقي الشيطان في أمنيته، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ويحكم آياته، ثم يورد الشيخ الطوسي رأيه: فأما الرواية بأنه قرأ تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجي، فلا أصل لها؛ لأنّ مثله لا يغلط عن طريق السهو، وقوله تعالى: )فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ( أي يزيل الله ما يلقيه الشيطان من الشبهة )ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ( حتى لا يتطرق إليها ما يشعثها.

وقال الطبرسي: «إنه لم يبعث رسولاً ولا نبياً (إلا إذا تمنى) أي: تلا، حاول الشيطان تغليطه فألقى في تلاوته ما يوهم أنه من جملة الوحي فيرفع الله ما ألقاه بمحكم آياته»([76]) .

ومن هنا فإن حكاية الغرانيق لا أصل لها فإنها «وقعت في السنة الخامسة من البعثة النبوية مع أن السورة تتحدث عن معجزة الإسراء والمعراج التي وقعت قبل ذلك أي قبل الهجرة بعام»([77]) .

وإن الوحي القرآني أسمى مما تصوره المستشرقون وتمسكوا به فإن رعاية الله U وحفظه كلماته تأبى تصديق ذلك، فقد أشار القرآن الكريم إلى هذه العناية وحفظها من همز الشياطين لقوله تعالى: )وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ \*ِإلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ( (سورة الحجر/الآيات 17-18)، ولو كان الوحي من الشيطان فلماذا لا يستنجد الرسول (ص) بالشيطان عندما «حز في نفسه غمز اليهود له، فظل يقلب وجهه في السماء ستة أشهر أو أكثر تحرقا وشوقا إلى تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى الكعبة المشرفة»([78]) .

لذلك هذه الدعوى مردودة وذلك بحسب الوقائع التاريخية، ولا بد من الإشارة إلى أنّ هذه الخرافة لا تثبت أمام عصمة النبي (ص) فإن «من سنن الكون تعليم برامج الحياة الاجتماعية من طريق الوحي، وتبين أيضاً أنّ الخلقة لا تخطئ في أعمالها فالمواد الدينية السماوية التي علم الإنسان بها من طريق الوحي لا يتسرب إليها الخطأ على طول الخط. قال تعالى:

)عالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا \*إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا \*لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا( (سورة الجن /آية26 - 28).

من هنا نعرف أن الأنبياء : رسل الله يجب أن يكونوا معصومين، أي لا يخطئون في تلقي الوحي من العالم العلوي وفي إبقاء ما تعلموه وفي تبليغ ما تعلموه ؛ لأنّهم : الواسطة في الهداية العامة التي يسير الخلق إليها بطبيعة خلقتهم، فلو أخطأوا في التلقي أو الإبقاء أو التبليغ أو خانوا لوساوس شيطانية أو نفسية أو أذنبوا ذنباً ما، فيكون نتيجة كل هذا الخطأ في سنة الكون الدالة على الهداية العامة، وهذا لا يكون أبدا، قال تعالى : )عَلَى الله قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ( (سورة النحل/آية9)([79]).

خامساً: مصدر الوحي الحالة المرضية والهستيرية:

ذهب المستشرقون إلى أن مصدر الوحي الحالة المرضية التي كانت تكتنف النبي محمدا (ص)، فذهب جولد تسيهر إلى أنه «خلال النصف الأول من حياته اضطرته مشاغله إلى الاتصال بأوساط استقى منها أفكارا أخذ يجترها في قرارة نفسه وهو منطو في تأملاته أثناء عزلته، ولميل إدراكه وشعوره للتأملات المجردة التي يلمح فيها أثر حالته المرضية، نراه ينساق ضد العقلية الدينية والأخلاقية لقومه الأقربين والأبعدين»([80])، نرى أن جولد تسيهر يلوِّح إلى عدة فروض منها :

- أنّ النبي محمداً (ص) اطلع بواسطة مشاغله وأعماله التي كان يزاولها على أفكار جديدة شكلت أهمية كبرى في نفسه.

- أنّ النبي محمداً (ص) كان يعاني حالات نفسية مرضية كانت لها أثر غير طبيعي في تصرفاته كابتعاده عن دين قومه وعزلته في الغار حتى تكوين دينه الجديد.

فالمستشرق يؤكد أثر الحالة المرضية في مصدر الوحي القرآني، وهذا ما يذهب إليه أيضا المستشرق آرثر لتبرير موقفهم من ادعاء هذه الحالات وشبهتهم على مصدر القرآن الكريم فيقول: «كان لا بد أن تعتري الدهشة الباحثين الأوربيين بسبب تلك الإفادات الموجودة في المصادر حول النوبات الغريبة التي كانت توافي محمدا، سيما عند الوحي»([81]).

نلاحظ أن آرثر يبرئ ساحة الباحثين الغربيين من هذا الادعاء ويجعلها في عهدة المصادر الإسلامية التي ذكرت حال النبي (ص) في أثناء تلقي الوحي ووصفته بأوصاف تبدو للقارئ أنه مصاب بأمراض عقلية، وممن ذهب إلى هذه الشبهة المستشرق درمنغم([82])، فأخذ يصور الحالة النفسية للنبي محمد (ص) في أثناء تحنثه في غار حراء، والانطباعات النفسية التي تركتها مشاهداته وتأملاته، فقال: «لما كانت سنة 610م كانت الحالة النفسية التي يعانيها محمد (ص) على أشدها... ووجد في وحدة غار حراء مسرة تزداد كل يوم عمقاً...»([83]).

ينسب درمنغم إصابة النبي محمد (ص) بمرضه النفسي منذ صغره ووصلت هذه الحالة ذروتها في سنة 610م، في العام الذي نزل فيه الوحي على النبي محمد (ص).

ثم أن بعض المستشرقين قد فصلوا مظاهر الحالة المرضية التي يعانيها (ص)، فقد ذكر نولدكه أعراض هذه الحالة مستفيدا من الروايات الإسلامية، بقوله: «إذ يروى أن محمدا كثيرا ما اعترته نوبة شديدة ،حتى أن الزبد كان يطفو على فمه، ويشحب وجهه أو يشتد احمراره ... وإن فقدان الذاكرة هو أحد أعراض داء الصرع الفعلي، فمن الضروري أن نصف ما كان يغشاه بحالة من الاضطراب النفسي الشديد ويقال: إن محمداً كان يعاني منها منذ حداثته»([84]).

يشخص نولدكه مظاهر الحالات التي كانت تصيب النبي محمد (ص) مستنتجا أنها من أعراض مرض الصرع، إن هذه الأعراض لا تدل على مرض الصرع، فقد أخطأ نولدكه تشخيصه فإن الصرع مرض عقلي، يصيب الجهاز العصبي يصحبه غيبوبة وتشنج في العضلات ثم إغماء ثم هذيان مصحوب بحركة واضطراب في اليدين والرجلين وقد يزعم المصاب أنه يرى أشباحا تهدده وأعداءا تحاربه وغيرها من الأفكار غير المقبولة ([85])، ويعد نوعاً من أنواع الجنون، ولم تذكر المصادر التاريخية إصابة النبي محمد (ص) بهذا المرض، ولو افترضنا صحة ما يدَّعون فكيف للرسول (ص) أن يأتي بكتاب -القرآن الكريم- احتوى سمات المعجزات السماوية التي كان أهمها:

1 ـ النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب.

2 ـ الأسلوب العجيب المخالف لجميع الأساليب العربية.

3 ـ الجزالة التي لا يمكن لمخلوق أن يأتي بمثلها.

4 ـ الإخبار عن المغيبات التي لا يمكن معرفتها إلا عن طريق الوحي.

5 ـ عدم التعارض مع العلوم الكونية المقطوع بصحتها...»([86])، ونلاحظ أن بعض المستشرقين يربط بعض الأخبار الضعيفة ومنها حادثة شق الصدر([87]) للاستدلال بالحالة المرضية و المتهيئات التي كانت تكتنف النبي (ص) منذ نعومة أظفاره ([88])، ومن هنا فإن المستشرقين قد أسندوا شبهاتهم بالروايات الضعيفة التي تطاولت على القدسية الإلهية للوحي ومصدره وجعلوها مبرراً لاتهاماتهم الباطلة.

سادساً: مصدر الوحي: البيئة المكية ومظاهر الجاهلية:

ادعى المستشرقون أن أحد مصادر الوحي المظاهر التي كانت سائدة في الجاهلية والمجتمع المكي، ومنها السحر، والشعر، والكهانة وقد ألقوا جزافا القول بأن النبي محمد (ص) قد تأثر بهذه المظاهر التي كانت تعج بها جزيرة العرب والاستفادة منها في إقامة دينه الجديد، وقد فرَّق المستشرق توشيهيكو([89]) بين الوحي المحمدي وهذه المظاهر بعد مناقشة الأسباب التي أدت إلى اتهام النبي محمد (ص) بالجنون والشعر والتكهن، معللا أن الأخيرة كانت منتشرة في بلاد العرب ([90]) .

أخذ بعض المستشرقين تتبع الآيات القرآنية ووصف تراكيبها بغية الوصول إلى أن ما جاء به النبي محمد (ص) هو من سجع الكهان، وكان منهم المستشرق بروكلمان الذي درس الآيات القرآنية وكأنها نص أدبي قابل للنقد والرد فيقول: «كان النبي في أقدم مراحل دعوته الدينية يطلق ما يدور بخلده وهو صادق الاستغراق والغيبوبة في جمل مؤثرة يغلب عليها التقطع والإيجاز وتأخذ طابع سجع الكهان واحتفظ النبي أيضا بهذا القالب الكلامي بعد ذلك حينما أخذ يترقى باطراد من طبيعة الغالب المستغرق إلى طبيعة الداعية الواعظ فكان يتلو في جمل أطول من الأولى تحذيراته وتعليماته التي حفت كثيرا بالقصص من العهد القديم»([91]).

نلاحظ أن الشبهة التي ادعاها المستشرقون لا تختلف عن الافتراءات التي قالها المشركون في عهد الرسول (ص) عند تبليغ دعوته فهي مستندة إليها، قال تعالى يصف افتراءاتهم:

)قَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ( (سورة ص/الآية 4)، وقوله U:)وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ( (سورة الأنعام/الآية 7)، وقوله: )وقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ( (سورة الصافات /الآية 15)، وغيرها من النصوص القرآنية التي بينت تزعم المشركين مثل هذا الافتراء .

وقد ذكر لنا التاريخ إعجاب أكابر المشركين بالقرآن الكريم وتحيرهم فيه فهذا الوليد بن المغيرة «اجتمع ونفر من قريش وكان ذا سن فيهم، وقد حضر الموسم، فقال: إن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا، ويرد قول بعضكم بعضا، فقيل: يا أبا عبدشمس، فقل، وأقم لنا رأيا نقوم به ، فقال: بل أنتم فقولوا وأنا أسمع. فقالوا: نقول كاهن؟ فقال: ما هو بكاهن رأيت الكهان فما هو بزمزمة الكهان، فقالوا نقول: مجنون؟ فقال: ما هو بمجنون ولقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بحنقه ولا تخالجه ولا وسوسته. فقالوا: نقول شاعر؟ فقال: ما هو بشاعر قد عرفنا الشعر برجزه وهزجه، وقريضه ومقبوضه، ومبسوطه فما هو بالشعر، قالوا: فنقول هو ساحر ؟ قال ما هو بساحر قد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثه ولا بعقده. قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لمغدق، وإن فرعه لجني فما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل»([92]). وبهذا قد أعجز القرآن المشركين وأثبت لهم فرية صنيعتهم وكذبها.

ولم يكتف المستشرقون بذلك وإنما تعدوه إلى القول بأن القرآن تأثر بظاهرة الشعر التي عرف بها العرب وتميَّز بها، فيذهب تسدال إلى أن القرآن مستقى من أبيات لامرئ القيس بقوله: «لا ينكر أن الأبيات المذكورة واردة في (سورة القمر /الآيات 1 و27 و29، وسورة الضحى/الآيات 1 و2 وسورة الأنبياء الآية /96 وسورة الصافات الآية /61) مع اختلاف طفيف في اللفظ وليس المعنى، مثلاً ورد في القرآن (اقتربت )، بينما في القصيدة (دنت)»([93]).

بقوله هذا يدعي وجود التشابه بين بعض آيات القرآن الكريم وأبيات شعرية تنسب إلى امرئ القيس كما يعطي أمثلة لها، وقوله مردود للأسباب الآتية:

- إن القرآن الكريم كان معجزة قوم برعوا في فنون الشعر والأدب فكان لابد من أن يكون هذا الكتاب مناسباً لما عرفوا به ليكون حجة عليهم فكل نبي لابدّ أن يأتي بمعجزة يتعارف قومه عليها لكنهم عاجزون عن الإتيان بمثلها فمثلا قوم موسى كانوا يعرفون السحر والشعوذة فكانت معجزته العصا واليد البيضاء وكذلك معجزة النبي عيسى (ع) وغيره من الأنبياء، ولو كان القرآن مما نظمه العرب من الشعر والنثر فلماذا عجزوا عن الإتيان بحديث مثله لقوله تعالى:

)فلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ( (سورة الطور/الآية 34)، أو حتى بسورة )وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ الله إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ( (سورة البقرة/الآية 23)، وقوله تعالى )أمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ الله إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ( (سورة يونس/الآية 38)؟

فنلاحظ أن المستشرقين اعتمدوا على الافتراءات التي وجهها المشركون للنبي (ص) فقالوا ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَة كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾ (سورة الأنبياء/الآية5). ويرد عليهم القرآن الكريم بقوله U: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِر قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ﴾ (سورة الحاقة/الآية4)، وقوله U: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ (سورة يس/الآية69).

- وقد أثبتت بعض الدراسات أن هذه الأبيات «اقتبست من القرآن وليس العكس وأنها كتبت في العصر العباسي ونسبت إلى امرئ القيس ضمن ما يسمى بظاهرة النحل في الشعر العربي، حيث عمد بعض الرواة كحماد بن هرمز(ت155هـ) وتلميذه خلف الأحمر(ت180هـ) في زمن العباسيين إلى وضع أشعار من إنشائهم ونسبوها إلى الجاهليين»([94]).

- ولو أن الرسول محمدا (ص) هو الذي ألف القرآن فلماذا انتظر هذا الوقت ليظهر دينه ؟ وقد يرد على ذلك أن هذه السن هي سن الرشد والحلم والحكمة ليقتنع قومه بصحة ما جاء به ورد ذلك بأن كيف لمحمد أن يضمن عمره بالبقاء لما بعد سن الأربعين لإظهار دعوته.

- تأكيد بعض المستشرقين المنصفين على صدق الدعوة الإسلامية والمصدر الإلهي للوحي مما يجعل ذلك ردا على أقرانهم.

فيقول بوازار([95]): «لقد كان محمد (ص) نبيا لا مصلحا اجتماعيا وأحدثت رسالته في المجتمع العربي والقائم آنذاك تغيرات أساسية ما تزال آثارها ماثلة في المجتمع الإسلامي المعاصر»([96]) .

ولا بد من بيان أن النص القرآني يخالف الشعر من جوانب شتى منها:

1 ـ إن العلاقة بين المرسل والمرسل إليه علاقة رأسية وتعدد الوسائط بين المتكلم بالوحي (الله) وبين المتلقين له (الناس).

الله الملك الرسول الناس

2 ـ اختلاف البناء الداخلي للقرآن الكريم عن البناء الداخلي للشعر»([97]).

وعلى ما تقدم يتضح أن هدف هذه الدعوى وما يماثلها هدفها الأساسي أنسنة الوحي وجعل الوحي الإلهي بشريا وهي دعاوى تحمل في طياتها «تأثراً واضحاً ببعض الدعـوات الفلسـفية الغربية الحديثة التي تتبنى قواعد الهرمونوطيقا التي تسعى إلى تحويل الثيولوجي إلى أنتروبولوجي، وهي بالنهاية تمهد إلى نبذ الوحي والتخلي عنه([98]).

المطلب الثالث

نماذج من الروايات التي اعتمدها المستشرقون

في شبهاتهم حول الوحي القرآني

1 ـ الأعراض المصاحبة للوحي:

«حدثنا عبد الله بن يوسف، قال: أخبرنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن الحارث بن هشام سأل رسول الله (ص)، فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله (ص): أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ فيفصم عني قد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول، قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا»([99]).

ولو ناقشنا هذه الرواية نجدها لا تصمد أمام الانتقاد، فرواتها عبد الله بن يوسف ([100]) الذي ذكره ابن حبان في الثقات([101])، ووثقه الذهبي([102]) وابن حجر([103])، ومالك بن أنس ([104]) من أئمة الحديث وصاحب كتاب الموطأ، وهشام بن عروة([105]) وأبوه عروة بن الزبير([106])، فأما الابن فقيل عنه أنه : «... لم يكن يحسن يقرأ كتبه، كتبت عنه ثلاثة مجالس ،وأغلب رواياته عن أبيه عن عائشة كما يعلم من البلاذري، ولابدّ من أنّه سرّ جدّه وأبيه » ([107]) ، وقال ابن حجر: ربّما دلّس([108])، وقال الذهبي: تناقص حفظه([109])، وذكره السيوطي في المدلسين([110])، أما الأب فقد وثقه الجمهور([111])، والحارث بن هشام المخزومي([112])، فله صحبة ([113])، فالرواية ضعيفة الإسناد في هشام بن عروة أما المتن فلا يسلم من انتقادات مثل:

1 ـ توحي الروايات ثقل الوحي على النبي محمد (ص) وتصويره بحالة من الفزع والمرض أثناء تلقيه حتى أن النبي (ص) يصعب تمييز ما كان عليه الوحي.

2 ـ نلاحظ أن زمن بعض الروايات يرجع إلى العهد الأموي والعصر العباسي اللذين تميزا بكثرة الوضع واختلاق الأحاديث.

3 ـ تنسب الروايات إلى الرسول محمد (ص)، أو لأحد الصحابة ونالت السيدة عائشة الحظ الأوفر من هذه الروايات فحاولت الروايات أن تظهر ميزة التفضيل لبعض الصحابة دون غيرهم .

4 ـ الروايات الواردة عن عائشة قد شاعت وانتشرت حتى باتت مألوفة عند كثيرين ويستفاد منها ما نزل أول الوحي فنلاحظ أن السيدة عائشة قد نقلت هذه الحادثة وكأنها عاصرتها وقد جرت قبل ولادتها بأكثر من عام، فيؤول ابن حجر ذلك «هكذا رواه أكثر الرواة عن هشام بن عروة فيحتمل أن تكون عائشة حضرت ذلك وعلى هذا اعتمد أصحاب الأطراف فأخرجوه في مسند عائشة ويحتمل أن يكون الحرث أخبرها بذلك بعد فيكون من مرسل الصحابة وهو محكوم بوصله عند الجمهور»!([114]) .

5 ـ اشتملت الروايات على مجموعة من الصفات التي نسبت للنبي (ص)، فصورته تارة بثقل الوحي وشدة الأمر وصورته أخرى بأنه كان يسمع أصواتا كصلصلة الأجراس ودوي النحل أحيانا فضلا عن الآلام المصاحبة للنزول وشدة التعرق حتى أنه على هذه الحال في اليوم الشديد البرودة، فكلّ هذه الحالات تعكس التصور المادي لقضية الوحي والأعراض المرضية التي كانت تنتاب النبي محمداً (ص)، وهذه الأعراض ليس لها أثر في القرآن الكريم ،قال تعالى: )قلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ( (سورة الأحقاف /الأية9)، وقوله تعالى: )مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ( (سورة فصلت /الآية 43)، وفضلاً عن ذلك فقد صورت الحالات اللاشعورية في تلقي الوحي وهي تنافي قدسية الوحي الإلهي وبلاغة القرآن الكريم التي يستبعد أن تصل إلى ذروتها عن طريق ما تصوره هذه الروايات، وأكثر ما يجوز قبوله في الموضوع هو أن النبي محمداً (ص) قد يكون في وضع خاص لا يمكن التكهن به ولكن الأرجح أنّ تنزيل الوحي يقتضي صورة أخرى تتصف بالثبوت والهدوء اللذين يستلزمان تبليغه بتمامه من دون زيادة أو نقصان، فقال السيد محمد حسين الطباطبائي في كيفية تلقي النبي محمد (ص) الوحي: «إنّ الذي كان يتلقاه من الروح هي نفسه الكريمة من غير مشاركة الحواسّ الظاهرة التي هي أدوات لإدراكات جزئيّة خارجيّة ... فكان (ص) يرى شخص الملَك ويسمع صوت الوحي، ولكن لا بهذه يسمع أو يبصر هو دون غيره، فكان يأخذه برحاء الوحي وهو بين الناس فيوحي إليه و لا يشعر الآخرون الحاضرون ...»([115]).

وهكذا نرى أن المستشرق استغل هذه الروايات من دون أي استدلال واتخذها وسيلة للطعن بقداسة الوحي الإلهي.

2 ـ مشكلة الرجوع إلى ورقة:

«حدثنا يحيى بن بكير قال: حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت أول ما بدئ به رسول الله (ص) من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: إقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلني فقال: إقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلني فقال: إقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: (أقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم)، فرجع بها رسول الله (ص) يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدا انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرءاً قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخا كبيرا قد عمى، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة يا ابن أخي ماذا ترى فأخبره رسول الله (ص) ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى يا ليتني فيها جذعا ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله9: أو مخرجي هم؟ قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي وان يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي»([116]).

ذكر العيني أن هذا الحديث معلق ([117])، أما حال رواته فضعفاء ومنهم يحيى بن بكير([118])، وهو ليس بالموثوق عند الرجاليين كما نص على ذلك الذهبي في الميزان قائلا: «يكتب حديثه ولا يحتج به»([119])، وضعفه النسائي أيضا ([120])، أما الليث بن سعد ([121]) ثقة ([122])، وعقيل بن خالد([123])، قال الرازي: «عقيل لا بأس به»([124])، ونقل ابن الجوزي في الموضوعات إن عقيلا يروى عن الزهري أحاديث مناكير([125])، وذكر ابن حجر أن عقيلا كان جلوازا([126])، أما ابن شهاب (محمد بن مسلم بن شهاب الزهري)([127]) قال السيوطي: «مشهور بالتدليس»([128])، وعروة بن الزبير مرّ الحديث عنه أيضا، فالرواية ضعيفة الإسناد.

مع تلك العلامات التي أظهرها الله للنبي محمد (ص)»، ومع أنه رأى الملك وأوحى إليه هذه الآيات من القرآن الكريم ،تظهر الروايات بأن النبي (ص) كان شاكا في أمره، وخائفا من مصيره، ولم يطمئن على نفسه إلا بعد أن بشره ورقة بن نوفل بالنبوة التي انتهت إليه وهذا مخالف لـ«يقين النبي (ص) بإلهية الظاهرة التي يتعرض لها، فمنذ اللحظة التي فاجأه فيها الوحي تمثل هذا اليقين في ذهنه وأدرك أن كل ما يوحى إليه صادر عنه تعالى وأنّ الملك الذي يأتيه هو رسول من الله وجاء استمرار الوحي وتكراره مرة بعد أخرى مؤكدا لهذا اليقين الذي رسّخ في نفسه الشريفة»([129]).

وفضلاً عن ذلك أن الرواية مضطربة متنا ولا تمتلك وحدة موضوعية متناسقة فتبدأ بموضوع الرؤيا للنبي (ص) ثم تنتقل إلى ابتعاده عن تصرفات قومه وحبه للخلوة في غار حراء، ثم تنعطف إلى نزول الملك فتبتعد عن موضوعها الحقيقي بالتركيز على ما فعلته خديجة من استشارتها لورقة والأثر الفاعل له في تهيئة النبي لتلقي الوحي فضلا عن نبوءاته الغيبية عمّا سيحل للإسلام من النصر والانتشار، وما يلاحظ أيضا أنه: « كيف لورقة أن يعلم النبي (ص) وهو يصرح أنه يؤمن برسالته ويتبعه ويخبره بما يقع له من قومه، ثم كيف يكون عند النبي (ص) المادة كاملة في حين أنها اكتملت بعد ثلاثة وعشرين عاما والقرآن لم يرسل جملة واحدة مع تضمنه من معالجات لقضايا حادثة وأحكام متعلقة بها»([130])، ويعلق السيد الطباطبائي على الرواية بقوله: «والقصة لا تخلو من شيء وأهون ما فيها من الإشكال شك النبي (ص) في كون ما شاهده وحيا إلهيا من ملك سماوي ألقى إليه كلام الله وتردده بل ظنه أنه من مس الشياطين بالجنون، وأشكل منه سكون نفسه في كونه نبوة إلى قول رجل نصراني مترهب وقد قال تعالى:

)قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ( (سورة الانعام /الآية 57) وأي حجة بينة في قول ورقة ؟ وقال تعالى: ) قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى الله عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ الله وَمَا أَنَا مِنَ الْـمُشْرِكِينَ ( (سورة يوسف / الآية108)، فهل بصيرته (ص) هي سكون نفسه إلى قول ورقة ؟ وبصيرة من اتبعه سكون أنفسهم إلى سكون نفسه إلى ما لا حجة فيه قاطعة ؟ وقال تعالى: )إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ( (سورة النساء /الآية 163)، فهل كان اعتمادهم في نبوتهم على مثل ما تقصه هذه القصة ؟ والحق أن وحي النبوة والرسالة يلازم اليقين من النبي والرسول بكونه من الله تعالى على ما ورد عن أئمة أهل البيت :»([131]).

3 ـ قصة الغرانيق:

«حدثنا الحسين بن إسحاق التستري وعبدان بن أحمد قالا: ثنا يوسف بن حماد المعنى ثنا أمية بن خالد ثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير لا أعلمه إلا عن بن عباس أن رسول الله (ص) قرأ النجم فلما بلغ (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العلى وشفاعتهم ترتجى، فلما بلغ آخرها سجد وسجد المسلمون والمشركون فأنزل الله تعالى )وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِي إِذا تَمنّى أَلْقَى الشَّيْطَان(([132]).

الرواية الأولى، رواتها: الحسين ابن إسحاق التستري([133]) ،«ذكره أبو بكر الخلال فقال: شيخ جليل»([134])، وقال ابن حجر: «ثقة»([135])، وعبدان بن أحمد الاهوازي([136]): ثقة حافظ ([137])، ويوسف بن حماد المعني([138])، ذكره ابن حبان في الثقات([139])، أما أمية بن خالد([140]): عده ابن حبان من الثقات ([141]) وضعفه العجلي بقوله: «أمية بن خالد القيسي بصري حدثني الخضر بن داود قال: حدثنا أحمد بن محمد بن هانئ قال: سمعت أبا عبد الله يسأل عن أمية بن خالد فلم أره يحمده في الحديث وقال إنما كان يحدث من حفظه لا يخرج كتابا»([142])، أما شعبة([143])، قال الرازي عنه: هو «إمام في الحديث»([144])، وذكره ابن حبان من مشاهير علماء الأمصار([145])، وأشار العجلي انه كان يُخطئ في أسماء الرجال لقوله: «شعبة بن الحجاج يكنى أبا بسطام واسطي سكن البصرة ثقة في الحديث تقي وكان يخطئ في بعض الأسماء وفي موضع ثبت نقي الحديث كان يخطئ في أسماء الرجال قليلا»([146])، أما أبو بشر([147]): ليس به بأس ([148]) وعده العجلي من الثقات([149])، وتنسب الرواية إلى المحدث الفاضل سعيد بن جبير([150])، فالرواية ضعيفة في أمية بن خالد وشعبة بن الحجاج.

إن متن الرواية مخالف لما ورد من الحرص والتهيئة الروحية والنفسية لتلقي الوحي فقد خاطب الله U نبيه بأن لا يعجل في تلاوة القرآن الكريم لقوله تعالى: )لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ \*إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآَنَهُ \* فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآَنَهُ \* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ( (سورة القيامة /الآيات 16-19)، وقوله تعالى: )فتَعَالَى الله الْـمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآَنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ( (سورة طه/الآية114).

وكذلك مخالف لصريح الآيات الكريمة من سورة النجم لقوله تعالى: )وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى \* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى( (سورة النجم /الآيات 3،4)، وقد جاء الإنذار الإلهي : )وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ \* لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ \* ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ( (سورة الحاقة/الآيات 44-46)، كذلك « إنّ الحديث يخالف ظاهر القرآن الكريم حيث ورد فيه السجود بصيغة الأمر الظاهر في الوجوب، قال سبحانه: )أَفَمِنْ هذا الحَديثِ تَعْجَبُونَ \* وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ \* وَأَنْتُمْ سامِدُونَ \* فاسجُدُوا لله واعْبُدُوا ( (سورة النجم / الآيات 59 ـ 62)، نعم لو ثبت فعل النبي (ص) يكون قرينة على حمل الأمر في الآية على استحباب السجود لكن الروايات المتضافرة دلّت على وجوبه»([151]).

ومن ملاحظة الآيات التالية للآية التي سمّت أوثان المشركين والأصنام، وبينت قبحها وسخفها، قد ذكرت بصراحة )إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَما تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْـهُدى(، ومع كل هذا الذم للأصنام، كيف يمكن مدحها؟! وإن جهاد النبي9 للأصنام جهاد مستمر طوال حياته ولم يقبل المساومة قط، وقد رفض الرسول (ص) الأوثان، وبرهنت سيرته المطهرة على استنكارها والتصدي لها، حتى في أصعب الظروف، فكيف ينطق بمثل هذه الكلمات([152]).

وقد ناقش الألباني الروايات التي نقلت هذه القصة مستخلصا أن ما ذكر فيها «طامّات يجب تنزيه الرسول منها»([153])، ولو كانت هذه القصة حقيقية لاتخذها المشركون ذريعة ليحاجوا النبي (ص) فيما بعد ولما رضخوا له ولما أسلموا يوم الفتح.

الخاتمة

إنّ من أخطر القضايا التي تناولها المستشرقون وأولوها الاهتمام بالبحث والدراسة قضية الوحي إلى النبي محمد (ص)، ونبوته، فلم تكن لدى معظمهم القناعة ولا الإيمان بهذه النبوة، ونزول الوحي عليه؛ ذلك لأنّ في إثبات الوحي إثباتا للرسالة السماوية، وفي نفيه نفيًا لها.

فقد تعددت آراؤهم حول مفهوم الوحي لما يترتب عليه من إثبات النبوة ومصدرية القرآن، وذلك يؤدي إلى التشكيك في سلامة القرآن الكريم فقد ادعوا عدة اتهامات وشبهات كان مجملها:

1 ـ اتهام الرسول (ص) بالكذب، وأن القرآن كان من عند نفسه، واختلاقه، وقد تعمد نسبته إلى الله تعالى.

2 ـ إن الوحي حالة نفسية ـ الوحي النفسي ـ أي: حديث النفس وإلهامها و(النوبات الانفعالية).

3 ـ إنه من إملاءات الكهنة والمنجمين.

4 ـ إن ما جاء به إنما جمعه من البيئة المكية التي كانت تعج بالرهبان والقسيسين والمختزن من بقايا ديانات سابقة.

5 ـ إنه ناتج من الحالة المرضية التي كانت تعتريه كالصرع الهستيري.

6 ـ إن ما جاء في الوحي القرآني هو من أصول يهودية ومسيحية اقتبسها النبي (ص) وأضفى عليها أسلوبه الخاص وحمَّلها مضامين ومعطيات بيئته، وألفها بشكلها الجديد.

وكانت أغلب الشبهات التي وجهها المستشرقون حول الوحي تعتمد على ما تخللته كتب الحديث عند العامة من الغث والسمين وما حملت في طياتها من روايات موضوعة خلفت كثير من التشويهات حول الدين الإسلامي الحنيف.